ذاكرتنا.. وذاكرتهم

سماح ادريس

أدرتُ جهاز التلفزيون في مَنزلي المؤقّت في نيوجرسي لأستمع إلى آخر الأخبار. كان المذيعُ قد أذاعَ الليلةَ الماضيَة أنّ «يلتسن» في حالةٍ صحيّة سيِّئة. وكنتُ أتوقّع (أتمنّى؟) أن يبتعد هذا الرئيس الرّوسيُّ عن ساحَةِ الفِعْلِ السِّياسي، بعد أن كَشَف عن ديموقراطيّته الفَجّة في قصف البَرْلَمانِ الرّوسي منذ أعْوام، وبَعْدَ أن بيَّنَ أنّ الليبراليةَ التي يدعُو إليها ليست أكثر مَن تَجْيير الاقتصاد الوطنيّ لِنَهْبِ الشّركاتِ الغربيّة الكُبْرى. لم أكنْ أُريدُ لَهُ المَوْت؛ فَقَد تعلّمْتُ منذ صغري أن لا أدعو لأحَدٍ بالمَوْت، وأنْ لا أتَشَفّى بموْتِ مَنْ أكْرَهه. كنتُ أريدُ لـ«يلتسن» أن يبتعدَ قليلاً فحسب. لكنّي فوجِئت بالمذيع على الـCNN يقول بصَوْتٍ بالَغَ في إضفاءِ التأثُّر والتهدّج عليْه: إنّ اسحق رابين قُتِل، وإنّ القاتل - كما يبدو - إسرائيليٌّ متطرّف.

تَسَمَّرْتُ أمامَ التلفزيون يوميْنِ كامليْن. التلفزيون الأمريكي صارَ شغله الشاغل رابين. «كأنّي في تل أبيب»، قلتُ في نفسي. التلفون يرنّ. صاحب **الآداب** على الخطّ: «أريد موقفاً لـ **الآداب**».

- ليش الموقف؟ مات رابين، والقاتل ليس عربيّاً! ما خَصّنا!

- شو يعني ها الحكي؟ [وبالفصحى أردف]: على المثقّف مسؤوليّة التعبير عن موقفه في كلّ القضايا المصيرية التي تمرّ بها أُمّته. يلّلا. معك يومان!

- شي حلو. موقف، من قضيّة، وقضيّة مصيريّة، وأُمّة، وما بعرف شو... كلّه بيومين؟ عندك مكنسة؟(*).

لكنّ وجدتُني، في أقَلّ مِن يَوْم، أكتب كلمتي القصيرة هذه. وأنا إلى هذه اللحظة، لا أدري سبباً واضحاً لذلك. هل هو اقتناعي الضمني بمسؤوليّةِ الكاتب العربي، واليوم تحديداً، في التعبير - ولو على عَجَلٍ - عن موقفه السياسي مِن قضايا أُمّتِه اليوميّة؟ أم هو وَفاءٌ لمجلّةٍ قراتها منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري؟ أم لأنّ الضغط النفسيّ الذي عانيْتُهُ أثناء متابعتي للتلفزيون الأمريكي عقب مقتل رابين قد فاضَ عن قلبي وانْسَكَبَ على هذه السُطور؟ أمْ لأنّ العربيّ المهزوم يشعر اليوم أنّ شريطَ الأحداث يمرّ أمامه دون أن يكونَ لَهُ دَخْلٌ فيه، مع أنّ أرْضَهُ هي المُسْتَباحَة. وشعبَه هو المذبوح، وكرامتَه هي المَهْدُورَة؟

لكنْ أيّاً يكنْ سببُ هذه الكلمات، فأنا أمل أن يقرأها القارئ - إنْ رَأفَتْ بها أصْلاً أجْهِزَةُ الرقابة العربيّة - وعيْنُهُ على ظروفِ كتابتها: قِصَرُ الزّمن الذي كُتِبَتْ فيه، وجَيَشانُ العاطفة، والرّغبةُ القاتلة في ردّ حالةِ الاستلاب عن النّفْسِ ولو هنيْهاتٍ قليلةً.

***

لَوْ كنتُ سُئِلْت على شاشة الـCNN عن رابين، كما سُئِل غَيْري مِن المواطنين العرب في أمريكا لقُلْتُ:

- يا سَادَتي المُتَجاهِلين، رابين لَمْ يكنْ يوماً «رَجُلَ سلام»، ليستحقّ اليوم ذلك اللّقَب المُخْزي الذي أسبغتموه عليْه: «شهيد السّلام». ففي عام ١٩٤١ الْتَحَقَ

(*) إشارةً إلى نكتة شعبيّة مؤدّاها أنّ شركة أعلنتْ عن رَغْبتها في توظيف عاملٍ لقاء مبلغ كبيرٍ مِنَ المال ولم تشترطْ أن تكونَ لهذا العامل أيّةُ مؤهّلاتٍ علميّة أوْ أكاديميّة. وحين جاء أحَدُ العمّال إلى الشركة قال له رئيسُها: «مهمّتك بسيطة. هذه آلة طَباعة. بيدك اليمنى تحرّك هذه الرافعة التي تقلب الصفحات. وبيدك اليُسْرَى تضغط على هذا الزرّ الذي يضخّ الحبْرَ في الآلة. وأمّا قدمك اليسرى فهي للكابح، كي لا تبذّر عدداً كبيراً مِن الصفحات أو كَمّيّة كبيرةً مِن الحبر. وأمّا قدمك اليُمنى...». وهنا قاطَعَهُ العاملُ بغضب قائلاً: «بالمناسبة، ألا أجد عندك مكنسة أضعها في مؤخّرتي فأكنس الأرض بها أثناء قيامي بهذا العمل؟».

بصفوف «اليلماخ»، وهي القوّة الضاربة في عصابة «الهاغانا» الصهيونيّة صاحبة المجازر الشهيرة.

وفي عام ١٩٤٨ قادَ كتيبة «هاريل» في حَرب النكبة التي يسمّيها الصهاينة «حَرْبَ الاستقلال»، وكان مسؤولاً - باعترافه - عن تهجير أكثر من خمسين الف فلسطيني. وفي عام ١٩٦٤ عُيِّنَ قائدَ أركان الجيش الإسرائيلي. واعتُبِرَ سنةَ ١٩٦٧ مُهَنْدِس العدْوان على مصر وسوريا والأُرْدن وبقيّة فلسطين، وعام ١٩٨٢ أيّدَ الاجتياحَ الإسرائيلي للبنان. وعام ١٩٨٤ أمَرَ جُنُودَهُ بإطلاق النّار على أطْفالِ الانتفاضة و«تكْسير عِظامِهِمْ».

هذه المعلوماتُ معرُوفةٌ للجميع. بقي أن نَرَى إذا كان رابين قد تَحَوّل حقّاً - كما يزعم التلفزيون الأمريكي وبعضُ الزعماء العرب - إلى «رجل السلام» بعد إبْرام اتفاقيتيْ السلام مَعَ قيادة منظمّة التحرير الفلسطينيّة. وقد كُتِبَ الكثير في تفنيد «سلميّة» إسرائيل وتنازلاتها المزعومة أخيراً؛ ويمكن في هذا الصدد مراجعة مقالات عزمي بشاره وإدوار سعيد. والّذي يبدو واضحاً حتى الآن هو أنّ الكيان الصهيوني، بزعامة رابين، قد اختار «إعادة نشر» الجيش الإسرائيلي في الضفّة الغربيّة وغزّة مُقَابلَ «إدانة» عرفات للإرهاب و«نبذِهِ» لَهُ وتخلّيه عن الميثاق الوطني الفلسطيني وتعهُّدِهِ بملاحقة المخلّين بالأمْنِ من أفراد المنظمّات الفلسطينيّة المعارضة؛ ومقابل تَأْجيل الحديث عن حلّ لمدينة القدس التي تُصرّ «إسرائيل» - وهي الطرف الأقْوَى وصاحبة القرار في نهاية الأمر - (وعلى لسان رابين نفسهِ) أنّها عاصمة «إسرائيل» الأبديّة؛ ومقابلَ غضّ النّظر عن وُجودِ المستوطنين اليهود في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة بعد ١٩٦٧؛ وأخيراً مقابلَ تجاهل حقوق ملايين الفلسطينيين المشرّدين خارج فلسطين. وحقيقة الأمْر أنّ ما «تَنَازلَتْ» عنه دولةُ العدوّ بزعامة رابين هو الكلفةُ البشريّةُ التي كان يَتحمّلها جُنودُهُ في الضفّة الغربية وقطاع غزّة مِن ثوّار الانتفاضة رغم تواضع أَسْلِحتهم، والكلفةُ الاقتصادية الباهظة التي كان يَتحمّلها الجيْشُ الإسرائيليُّ بهدف قمع الانتفاضة وإبقاء الأراضي المحتلّة «هادئة». وبالطّبْع لم يمانع رابين في أنْ يكونَ الرئيس ياسر عَرَفات هو القامع الفعليّ للانتفاضة، والمتعهّد الحقيقي بوقف «الإرهاب». وإنْ أَخَلّ عَرَفات بتعهُّدِهِ، أوْ أرْخى قبضته على «الإرهابيين»، فعلى إسرائيل أن تتدخّل بكلّ الطرق؛ وأين الخَطَر في ذلك على إسرائيل ما دام الجيش جاهزاً «للتدخُّل» في كُلّ لحظة، ومعابِرُ الدُّخول مراقبةٌ إلكترونياً وبَشَرِيّاً؟

وذهب رابين في حساباتِهِ المدروسة إلى أبعد من ذلك. فالعصر هو عَصْرُ السّلام، لا الحَرْب؛ والعرب مهزُومون ومكسُورون خصوصاً بَعْدَ هزيمة الجيْش العراقي وتفكّك التضامن العَرَبيّ. وفكّر في أنّها اللحظة المؤاتية لتشريع كيانه عَرَبيّاً وتمدُّدِهِ اقتصاديّاً. إنّها أحلامٌ كبيرة، لبني صهيون، والثمن الذي سيدفعونه بَخْسٌ بالمقارنة: إعادة انتشار. وأمّا الترسانة النوويّة فمقدّسة لا يَمَسُّها أَحَدٌ بكلمة أوْ هَمْسَة؛ وأمّا الإعلان أنّ حلم إسرائيل الكبرى الممتدّة مِن «النّيل إلى الفُرات» فلم يُشِرْ رابين ولو إلى إمكانيّة تغييره! وأمّا الإقرار باحتمال - قيام دولة فلسطينيّة - ولو من دون القدس - فأمْرٌ مستحيل.

وخلاصة الأمر - وفي التلخيص إخْلالٌ ببعض الحقائق، ولا شك - أنّ «انتقال» رابين مِن وَضْع المحارب إلى وَضْع المفاوض أشبَهُ بنقل البندقيّة مِن الكَتِفِ اليُمنى إلى الكتف اليُسْرى.. بل هو، في الواقع، انتقالٌ في التّكتيك يكلّف صاحِبَه خسائر أقلّ، ويُشرّع البَوّابَةَ الاقتصاديّة (وربّما الثقافيّة؟) والسياحيّة العربيّة على الكيان الصهيوني المَعْزُول عُقوداً طويلَة. فَأيُّ سلام، بعد كل هذا، كان رابين «بَطَلَهُ» و«شهيدَهُ»؟ وهل يكفي أن يَقتُلَهُ صهيونيٌّ آخَرُ أَشَدُّ فَجاجَة مِنْهُ، ولو في القَوْل وحده - هل يكفي قَتْلُهُ ليقنع العربَ بحسن نيّة رابين في السّلام؟

***

ولو سُئِلْتُ على شاشة الـCNN عن خليفَةِ رَابين، شيمون بيريز، لَقُلْت:

- يا سادَتي المتجاهلين، بيريز لم يكن يَوْماً رَجلَ سلام، هو الآخر. فَلْنَعُدْ إلى السّنَوات الأُولى لنشوء «إسرائيل». ففي هذه السنوات سافر شيمون الشابّ إلى الولايات المتّحدة على رأس فَريقٍ عسكريّ، وَدَرَسَ في جامِعَتَيْ هارڤرد ونيويورك، ليعود عام ١٩٥٢ إلى

فلسطين المحتلّة ويُعَيِّن مديراً عاماً لوزارة الدفاع (!) في حكومة بن غوريون. وقد أشْرف بيريز في مَنْصبه الجديد هذا على بناء صناعة التسليح الإسرائيلية برُمَّتِها، مُدْخِلاً تكنولوجيا الالكترونيّات وتصنيع الطيران إليْها. ولعلّ القارئ العربيّ لم ينسَ أنّ بيريز - داعية «السّلام» العَتيد في عصر النظام العالمي الجديد - هو الّذي أتى بأوّل مفاعل نوويّ إلى الكيان الصهيوني! وبالطبع فإنّ مفاعل ديمونة، بحسب المنطق الإسرائيلي، ضرورةٌ لا مَحيدَ عنها للسّلاَم المنشود مع العَرَب!

***

ولو سُئلتُ عن الشّاب الإسرائيلي الذي قَتَلَ رابين، لقلتُ:

- يا سادتي الكرام، «إيغال أمير» ليس صبيّاً مجنوناً مُنْعَزِلاً (a lone madman) كما زَعَم بنيامين ناتانياهو، وايهود باراك، والكثيرون مِن محبّي إسرائيل في الولايات المتّحدة، وجاراهم في ذلك بعض العَرَب فإيغال أمير هو ابنُ «حضارة» مستوطناتٍ غَذّاهاشَامِير وبيغن بالمالِ والماءِ والسّلاح مِنْ دون أن ينبس رابين ببنت شفة اعتراضاً على سياستِها. بل قد يكون أمير واحداً مِنْ جُنُود رابين الفعليين الذين أسْهَمُوا، وبتفانٍ مشهود، في تكسير عِظامِ المنتفضينَ الفلسطينيين بناءً على أوامِرِ داعيَة السّلام العَتيد/الشهيد.

ويمكنُ المرءَ أن يذهب إلى أبعد مِن ذلك، فيقول: إنّ أمير، كما كاهانا وباروخ غولدشتاين وغيرهما مِن «المتطرّفين»، لَيْسُوا إلاّ نِتاجاً مشروعاً لمجتمعٍ «وحضارةٍ» مُشْبَعَيْن بالإرهابِ والقَتْلِ والعداوة. لقد ذَكَرَ ناتانياهو أنّ «أمير قد خَرَقَ مَبْدَأً يهوديّاً أوّلَ: «لا تقتُلْ». ولكنّ هذا المبدأ لم يصدق، في تاريخ الكيان الصهيوني، إلاّ على اليَهُود في علاقة الواحد مِنهم بالآخر... ومِن المتوقّع أو الطبيعيّ أنّ اليَدَ التي أدْمَنَتِ القَتْلِ والذّبْحَ والتّهجير لن يعوزَها أعداءٌ جُدُدٌ تنفثُ عليهم حِقْدَها الدّفين بعد أن رَحَلَ أو استسلم الأعداءُ الأصليّون (الفلسطينيّون، أو قيادتهم). فالمجتمع الحاقد، و«الحضارة» الحاقدة، والتعصُّب العرقي والعنصري والدّينيّ... كل ذلك أشبهُ بالنّار التي وصفها الشاعرُ العربيّ قديماً - في مَعْرِضٍ مختلفٍ (هو حديثُهُ عن كَيْدِ الحَسُود). حين قال:

كالنّارِ تأْكُلُ بَعْضَها إنْ لم تجد ما تَأْكُلُهْ!

لاحظوا يا سادَتي الكِرام أنّ الخِطاب الدينيّ الذي اسْتَخدمه ايغال أمير لِقَتْل رابين - «إنّهُ تكليفٌ وأَمْرٌ مِن الله» - هو الخِطابُ الديني نفسُه الذي استخدمه رابين وآباء رابين وأبناؤه وأَحْفَادُه لتَبْرير استيلائهم على الأَرْض العربيّة الفلسطينيّة، ولقمع التمرُّد العربيّ فيها، ولتحصين أنْفُسهم بالترسانة النوويّة... بل هو تبريرهم الأوّل لمغادرة بلادهم الأَصليّة واستيطان أرضِ الميعاد». الفارق البارز هنا أنّ أمير وغولدشتاين وغيرهما «أَخْلَصُوا» لحرفيّة الخطاب الرجعيّ، أو أنّهم لم يدرسوا في معاهد أمريكا أساليبَ التكتيك والخبث السياسي كما فَعَلَ كثيرٌ مِن قادة حزب العمل الإسرائيلي! الخطاب سينقلب، هنا، على الخطيب... فاللّه - في عُرف التطرُّف - لا يعرف التنازُلَ عن حقوقِهِ ولو على سبيل التكتكة!

***

وإذا لم يَضِقْ ذَرْعاً بي مُراسل الـCNN بعد كل هذا، لقُلْت:

- أن يكون قاتِلُ رابين إسرائيليّاً متطرّفاً لهُوَ أمرٌ يبعث على التفاؤل، فمن المهمّ أن نلحظ انشقاقاً جديداً في المجتمع الإسرائيلي يخفّف من غلواء قادته وتبجّحهم القومي. بل ربّما كان من المفرح أن تنضمّ إلينا - نحن بلدان العالم الثالث المحشوّة بالمسلمين والإرهابيين - دولة ديمقراطية عصرية تعاني مثلنا من خطر الأصولية، بل الأصوليّتين: الإسلامية واليهودية معاً... وإذ ذاك قد ترفع الولايات المتّحدة مثلاً حظرها على المسافرين الأميركيين إلى لبنان وتتدفّق أموال الغرب علينا، لأنّنا أهونُ الشرّين، على أساس أن أصولية واحدة خير من اثنتين!.

***

وإذا رغب مراسل الـCNN في إنهاء حديثه معي (الذي أشكّ أنّه سيعرض أكثر من عشرة بالمئة منه، رغم تشدُّقِه بالديموقراطية... أقول إذا أحبّ أن ينهي مقابلته لي) باتّهامي بالتطرُّف، لأجبتُ:

- الوفاء للذاكرة التاريخية والوطنيّة ليس تَطَرُّفاً

ولا تَعَصُّباً، يا صديقي. أنْ نَذكُرَ قتلانا وأسرانا وشهداءنا وقرانا المسفوكة، فهذا أمْرٌ لازمٌ لصحّتنا العقليّة، ودليلٌ بأنّنا لم نَزَلْ جديرين باحترامنا لأنفسنا (كمعطىً تاريخي ووجوديّ) ولمحيطنا الذي أنْجَبنا وأنجبناه. وذلك لا يعني أن تكون الذاكرةُ نقيضاً للتطوّر، بل إنّ التطوُّر غيرَ المستند إلى ذاكرةٍ لَهُوَ قَفْزٌ في الفراغ... وربّما قَفْزٌ في أحْضَانِ الأعْداء. ومثلما يسمح الإسرائيليّون وأنصارهم لأنفسهم بالتباهي بشهدائهم مِنْ رابين نزولاً إلى ضحايا الهولوكوست المنسوبين - زوراً وسرقة - إليهم... فليسمحوا لنا أن نذكر فتحي الشقاقي وغسان كنفاني وأبو جهاد وشهداء صبرا وشاتيلا ودير ياسين والقبّية وأطفال الحجارة ومعوّقي الانتفاضة - فالذّاكرة، حتى في معرض التفاوض مع الأعداء، أضمن للسّلام المرجوّ وأكثر ترسيخاً لَهُ.

وأمّا إذا كنت تردّ تطرُّفي إلى رفضي السّلامَ الحالي، فجوابي أنّ هذا السلام المزعوم ينثر بذور حَرْبٍ جديدة بيْنَ العرب و«إسرائيل»، وبين العرب والعَرَب، وبين الإسرائيليين والإسرائيليين. فهو سلامٌ تَرفضه الأكثريةُ الساحقة مِن العَرَب، كما أُرَجِّح، فيما لو جرى استفتاء حقيقيّ حَوْلَه؛ وهو سلامٌ يرفضه نصف المجتمع الإسرائيلي الّذي تَرَبّى على العداء للعَرَب. وأما مَنْ بقي مِنْ مؤيِّديه في صفوف العَرَب، فأنت تعلم بدون شكّ مدى شعبيّتِهم «المطلقة»!

الذّاكرة غير الحقد وغير الأسطورة، تماماً، كما أنّ المقاومة غير الإرهاب. تلك ثنائيّات قد تَبْدو للعقل الإعلامي الأمريكي واحدة، لكنّها للشعوب المضطهدة قِوامُ حياتها ونضالها. نتذكّر: أي نَحْذَرُ مِنْ كل مخطّط جديد خُلْبيّ مخادع، ونَسْتَلُّ مِنْ ذاكرتنا ما يكشف أسطورةَ السّلام الإسرائيلي والديموقراطية «اليلتسينيّة» التي روّجتموها في إعلامكم الأمريكي... حتى صدّقَها بعضُ العرب الأذكياء.

برنستون - نيو جرسي
٧ تشرين الثاني ١٩٩٥

تحية إلى نزار قباني

معركة «المهرولون»...

سهيل إدريس

يتابع نزار قباني على شاشة التلفزة حفلة توقيع بعض الرؤساء العرب في حديقة البيت الأبيض في واشنطن على اتفاقية ياسر عرفات مع العدّو الصهيوني، فيشعر بالذلّ والمهانة، وتترقرق الدموع في عينيه، ثم يشعر بالغضب يهزّ كيانه، فتتفجّر شاعريّته بقصيدة «المهرولون».

حين تلفنتُ له الى لندن لأُحيّيه على رائعته، قال لي إنه لا يفهم كيف حدث له، للمرة الأولى، أن أنجز قصيدة طويلة مثلها بأقلّ من ساعة!

قلت له: بلى، أنا أفهم. إن نبض الأمة العربيّة هو الذي خفق في نبضك، وتلقائيتك هي تلقائيّتها. إنّك، أيها الشاعر، وجدانها الصادق.

***

وبقدر ما جاءت «المهرولون» شامخة، جاء ردّ نجيب محفوظ ركيكاً!

قال إنّه لا يحقّ لنزار قباني أن يلعن المهرولين، ولكنه لم يتساءل كيف حُق له هو نفسه أن يبارك مبادرة السادات حين طار زائراً تل أبيب، بالرغم من «رفض معظم المثقفين المصريين والعرب عموماً لها» باعترافه هو نفسه!

والحقّ أن موقف نجيب محفوظ من قصيدة نزار كان متخبّطاً حين حكم بأنها «قصيدة قويّة وموقفٌ ضعيف». ما هما مقياسا القوّة والضعف في هذه الحالة؟ هل يقصد أن الأداء واللغة والأسلوب كلّها قويّة، ولكن الفكرة ضعيفة؟ إذا ضربنا صفحاً عن